تقديم

رسالتي هذه محاولة أولىٰ لنقل صورة بانوراميَّة عن واقعِ السياسيِّ في الثورة وعند الثوَّار في سوريا، كي يظهرَ تشابكُ الأحداث والفاعلين، ويتبيَّن أنَّ ما يبدو انقطاعًا في السياسيِّ إنَّما هو حصارٌ أو تبدُّل أو انحراف أو افتراق أو تقهقر أو انقسام أو تفتَّت أو اضمحلال، وهي ثمرة متابعة خطابات ومسالك الفاعلين القدامىٰ والقادمين إلىٰ المجال العام في صناعتهم واستجابتهم لأحداث الثورة منذ اندلاعها، وقد امتدَّ تدوين ملاحظاتها وكتابة نصوصها وتوثيق موادِّها علىٰ مدىٰ عدَّة أشهر عبر الإضافة والحذف والتعديل بهدف الوصول إلىٰ مقاربة معتبرة الدقَّة من واقع الميدان المتشاجر بكلِّ مكوَّناته. وتريدُ رصد مظاهر تخلُّق العمل السياسيِّ الجديد منذ قيام الثورة من نقطةِ بدءٍ، هي أنَّ المظاهرة الأولىٰ كانت الفعل الأوَّل الذي تعرَّف السوريُّ من خلاله إلىٰ نفسه كذات سياسيَّة فاعلة منذ عقود، وذلك بعد توصيف إقفار الحياة السياسيَّة في سوريا تحت سلطتيِّ الأسد الأب والأسد الابن، ثُمَّ تطوُّره أو إمكانيَّة تطوُّره، ثُمَّ حصاره بفعل الحرب التي هي ردُّ الثورة علىٰ عنف سلطة الأسد بدايةً، وأداة تقويض الواقع الذي خرج عليه الناس.

ومن بعد ذلك، وبسبب طبيعة الحرب السوريَّة بالغة القسوة والوحشيَّة، وغياب نهايةٍ قريبة لها، وشدَّة تدخُّل القوىٰ الخارجيَّة المختلفة فيها؛ تطوَّر من رحم هذه الحرب ما سأسمِّيه (العمل السياسيّ الفصائليّ)؛ إذ أشرح كيف سعتْ بعض الفصائل المسلَّحة في وقت مُبكِّر إلىٰ توفير مُقوِّمات مشروعها الخاص المفارق للثورة، وكأنَّه كان مضمرًا، في حين ظهرت أخرىٰ وكأنَّ مشروعها السياسيَّ مُؤجَّلٌ أو منتظرٌ إسقاط الأسد، أو سقوطه لوراثة ما يتبقىٰ من المؤسَّسات والبيروقراطيَّة المكوِّنة للدولة السوريَّة والبناء عليها، بعد مرحلة انتقال وإعادة هيكلة، أو عمليَّة من هذا القبيل، حتىٰ إذا ما طال أمدُ الحرب، وقست، واتسع الفراغ السلطوي في الأراضي الخارجة عن سلطة الأسد وحلفه، واشتدَّ التنافس مع تلك الفئة الأولىٰ، استدركت وعملت. سوف تكون إذن **دراسةً تصنيفيَّةً وصفيَّةً تحليليَّةً راجعةً؛ أخصُّ بها -بعد تمهيد ضروريٍّ- الفاعلين علىٰ الأرض السوريَّة تحت عنوان: «العمل السياسيّ الفصائليّ»**؛ سأصف الضيِّقَ من سياساتهم، وشغلهم للسياسيِّ، وأربطه بما قد يكونون يُفكِّرون فيه بشأنِ مشروعٍ ما جامعٍ يُعبِّر عن روح الثورة الأولىٰ حيال مستقبل سوريا ودولتها. وليست محاولتي هذه إلَّا تأسيسًا؛ فالكتابة عن مثل الثورة، وعن سيرة لا تزال حيَّة متفاعلة محتدمة، تستلزم تناولًا متعدد الاختصاصات، كما أنَّها لا تصدر أحكام قِيمة، ولا تجري تفضيلات جوهريّة؛ وإنَّما تحاول توصيف واقع العمل السياسيِّ كما هو، وتحليله عبر تصنيف الأزمنة

والفاعلين تبعًا لمرجعيَّتهم النظريَّة المعلنة أو المضمرة، ووفقًا لطبيعة خطابهم وسلوكهم كما هي، أي كما أفهمُ أنا كلَّ ذلك، وأتناوله، وأنقله.

وفي تحرير العنوان: «**العمل السياسيّ**»؛ فلا شكَّ أنَّ السياسيَّ متواشج مع الاجتماعيِّ بحيث لا ينفصلان إلَّا لأغراض بحثيَّة بحتة، وأنَّ الفعل السياسيَّ مُكوِّن أساسيٌّ لنشاط الإنسان، ومكنون في جلِّ تصرفاته. وإنَّ جواب سؤال (ما السياسي؟) مثار جدل. وأريد في رسالتي من «**العمل السياسيّ**» تبعًا للفصلين الأوَّل والثاني ما يلي؛ في **الفصل الأوَّل**: تثقيل معنىٰ النشاط السياسيِّ، والذي هو: أيُّ فعل يدعم جهة ما، أو يُناهض جهة ما، والقول فعل، من الأفعال التي تبتغي كسب الولاء للفاعل أو التعاطف، أو العمل معه أو دعمه، عبر الإقناع أو الإجبار، في سياق صراع الأفكار والمصالح بين الفاعلين وخلالهم، والتثقيل نابع من أهميَّة أيِّ نشاط سياسيٍّ في بداية الثورة في بلد مثل سوريا تحت سلطة مثل سلطة نظام الأسد. وفي **الفصل الثاني**: العمل السياسيُّ الفصائليُّ؛ فإنَّني أقترب أكثر من علم السلطة، وإنْ كان المفهومان متداخلين نظريًّا وعمليًّا، فمرادي توضيح سعي فاعل ما، طرف، إلىٰ اللعب علىٰ مختلف وحدات القوَّة في المجتمع، النظريَّة والماديَّة، بهدف كسب ولاء أو دعم أو تعاطف أفراد وجماعات وأطراف لحشدهم حوله أو إدراجهم في كوادره؛ بغية حيازة سلطة ما، وسياسة مجتمع ما، ضمن سياق أنَّ أصنافًا متعددة من الفاعلين توافقَ فعلها المناهض

لمجموعة أصناف أخرىٰ. وفي الفصلين لا أريد من العمل السياسيِّ مفهومه المكنون في علم الدولة الحديثة، وفي الحالتين أريد أن أصف فشل، أو عدم نجاح، الخطابات والمسالك، العنفيَّة وغير العنفيَّة، في تأسيس عمل سياسيٍّ منظم وممأسس، إلىٰ قدر ما، يسوس مجتمع الثورة، ويحمل قضيَّتها، قضيَّته؛ أي: معالجة حصار العمل السياسيِّ الجامع، بالمعنىٰ الإيجابيِّ في حالتنا، حالة الثورة السوريَّة ومجتمعها. وإنَّ المساهمة في العمل السياسيِّ التي سترد كثيرًا، المشاركة السياسيَّة، لا يراد منها ما قد يتبادر إلىٰ الذهن من أفعال المشاركة في الحياة السياسيَّة الحديثة في سياق مؤسَّسات الدولة والمجتمع المدنيِّ، حيث سأُبيِّن بدايةً غياب ذلك فعليًّا في سوريا، ولكنَّ المقصود، وهو يختلف بين الفصلين، هو دعم النسق السياسيِّ الآخذ في التشكل بعيد الثورة، ليس ماديًّا فحسب؛ بل كلُّ ما يصب في هذا النسق من أفكار وأقوال، ومن مشاعر الانتماء إلىٰ قضيَّة الثورة، والمشاركة في الشأن العام، والإرادة في التغيير أو التحوُّل، أي الهدف التغيير في النظام السياسيِّ القديم أوَّل الأمر، ثُمَّ تغييره عبر القضاء عليه بعد ما تبيَّن عدم القدرة علىٰ الفعل الأوَّل بسبب بنية النظام نفسه، وكان يبدو بادئ ذي بدء أنَّ النسق عام، وكان يمكن أن يبقىٰ عامًّا وأقوىٰ. وفي **الفصل الثاني**: وفي ضوء شرح العوامل المفضية لذلك، أوضِّح، كيف صار الفعل عنفيًّا كلّه أو جلّه، عنيفًا كاستجابة لعنف النظام القديم، ثُمَّ كفعل خلاص ومقاومة وتحرر، ثُمَّ كيف تشظَّىٰ

النسق الآخذ بالتشكل إلىٰ أنساق، بعضها سابقٌ وقديمٌ ومكتمل نظريًّا في مخيِّلة الفاعل فيه، وبعضها مبتور أو منتظِر أو متوقف علىٰ أنساق فرعيَّة مكنونة في النظام السياسيِّ القديم، وعلىٰ مؤسَّسات[1].

(١) تمَّ تحرير المصطلحات والمفاهيم الموظَّفة هنا من خلال، علم الاجتماع السياسي: مقاربة إبستمولوجية ودراسة تطبيقية علىٰ العالم العربي، د. إبراهيم الأبرش.